الاستعراض

كان مما نزل في بدايات الوحي قوله تعالى:

«ياأيها المدثر، قمْ فأنذر، وربك فكبّرْ، وثيابك فطهّر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبرْ»

والاستكثار معناه الرضى عن النفس، أما عدم الاستكثار فمعناه الإحساس بدوام التفريط، ومن ثم الاجتهاد أكثر.. ومن أبشع الانتهاكات والاختراقات لهذا الأصل العظيم «ولا تمنن تسكثر» استعراض الكثير من الجماعات لقوتها «الأمر الذي تكتشف خطأه عند أول اصطدام لها بغيرها... والملاحظ في عالم الكبار اليوم أن هناك لغة واحدة تكتنف موضوع «القوة» وهي لغة «السرية والصمت» و«الازدياد من مقتنيات أسباب المنعة».

والذين ينظرون إلى الخرق الأمريكي لاتفاقية (ABM) لسنة ١٩٧٢ على أنها خرق مشين من دولة مستهترة، أناس مخطئون، لسبب واحد، وهو أن هذا الخرق الأمريكي العلني تقابله خروقات كثيرة سرية عند دول أخرى.. وإلا فهل توقفت دولة كبرى في لحظة ما، ولأي سبب كان، عن إنتاج أسباب القوة التزاماً بمعاهدة أو غيرها؟!!

لذلك تظهر نتائج الأبحاث والتصنيعات السرية دائماً في نشرات الأخبار بهذا الشكل: «كشف النقاب عن......» و«في مفاجأة كبيرة أطلقت الدولة صاروخاً جديداً» و«تسرب أخبار عن مضي الدولة الفلانية في برنامجها النووي»..

والبعض يذكر ،ولاشك أنه في ١٥ ايار مايو ١٩٩١ نُشر تقرير المندوب الأمريكي «كريستوفر كوكس» الذي اتهم الصين بالتجسس المنظم على الترسانة النووية الأمريكية منذ السبعينيات، وهو ما مكّن الصينيين من الاطلاع على معلومات دقيقة حول معظم القنابل الذرية، ومنها القنبلة النترونية، لكن الصين سارعت إلى تكذيب تلك الادعاءات، غير أنها بعد ذلك اختارت ١٥ تموز\ يوليو ١٩٩٩م لتعلن سيطرتها على تكنولوجيا القنبلة النترونية..

إن الصين دولة قوية بمنظور القوة العالمي، ويمكن إلقاء نظرة سريعة على بعض عناصر ترسانتها العسكرية لإدراك ذلك، فقد كشفت منذ فترة عن صاروخها الجديد المضاد للدبابات (Red - Arrow - 9) وهو الصاروخ الذي يبلغ مداه ٥٥٠٠ م، في الحين الذي يبلغ فيه الصاروخ الأمريكي الذي تنتجه شركة «رايتون» (RTGM) فقط ٣٧٥٠ م، كما تصنّع الصين صواريخ بالستية، وأخرى عابرة للقارات، وهو بعض ما يستند إليه الأمريكيون ويتذرعون به لإنجاز نظام دفاعهم الصاروخي (NMD) الذي تبلغ كلفته ٦٠ مليار دولار، وسيكون جاهزاً عام ٢٠٠٥، وقد أسلفنا أن الصين كانت قد أعلنت في ١٥ تموز يوليو ١٩٩٩ عن سيطرتها على تكنولوجيا القنبلة النترونية، وفي ٢ آب أغسطس أطلقت ثاني تجربة لها للصاروخ البالستي عابر القارات والذي يبلغ مداه (٨٠٠٠) كم، وفي تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٩٩م أطلقت بكين العربة الفضائية (شنزهو) Shenzhou لتثبت بذلك أنها تمضي بخطى وئيدة في تنفيذ برنامجها االعسكري الذي بدأته سنة ١٩٥٦م، وفي كانون الأول ديسمبر ١٩٩٨ قال كشف لعلماء الذرة Bulletin of Atomic Scientists أن الصين تبوأت

المركز الرابع عالمياً بين البلدان التي تملك السلاح النووي، وفي كانون الثاني ١٩٩٩ أطلقت الصحافة الأمريكية حملة اتهام للصين بسرقة الأسرار النووية الأمريكية خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات، غير أن السر الصيني في كيفية الانتاج والتصنيع في هذا المجال يبقى حبيساً عند الصين وحدها.

إن المفرقعات الاستعراضية التي تلجأ إليها بعض الجماعات تدل دلالة لا لبس فيها ولا غموض على ضحالة الفكر الاستراتيجي عند هذه الجماعات، كما تدل على جهلها المدقع بما يحكم العالم في هذا المجال.

وفي الصراع المرير مع إسرائيل يذهب الكثيرون إلى الحديث عن الحق المشروع، وعن قوة العقيدة مقابل القوة العسكرية للعدو. وهنا لا بد أن نضع اليد على مغالطة كبرى وهي أن الحديث عن العقيدة الإسلامية باعتبارها السلاح الوحيد والفعلي ضد ترسانة العدو يعد تشويهاً ذريعاً لمعادلة المعركة كما أرادها الإسلام فلئن كان المسلمون مسلمون فعلاً فلماذا يضعون الفكرة المجردة وهي هنا العقيدة الإسلامية في مواجهة فكرة أخرى مترسة بأبشع أنواع السلاح؟!! لماذا لا يضعون القوة مقابل القوة، والله تعالى يقول: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل».

إن تعطيل آية الإعداد وآية التوحد ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ وآية إغفال بأس الحديد ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾ كل ذلك يعد ابتعاداً رهيباً عن العقيدة.

كيف..؟

لنتصور معاً شخصاً عنده آلة لتصنيع السلاح من مسدسات، وقنابل،

ورشاشات.. وهو يعلم أنه سيكون في مواجهة عدو له بعد سنة، لكنه رغم ذلك يعطل تلك الآلة عن إنتاجها، ويبقى السنة كاملة في بطالة، ويوم المعركة حين تدق طبول الحرب، يجر آلة إنتاج السلاح معه إلى المعركة ليواجه بها أعداءه، فقط بعرضها والافتخار بها بأن من مواصفاتها أنها تنتج ١٠٠٠ قطعة في اليوم.. وينطبق هذا المثل تماماً على العقيدة أو على الإسلام، فالله أعطانا العقيدة لننتج بها الرجل العقائدي المعبأ، المتحمس، الشجاع، وننتج بها الصف الموحد، وننتج بها السِرية في تدبير الاستعداد لمواجهة الآخر، وننتج بها السلاح (وأعدوا لهم)، غير أننا نبقى طوال حياتنا بعيدين عن كل هذا، بل بقينا لقرون عدة بعيدين عما يتبناه الغير للظهور علينا.. ويوم المعركة نصل الميدان بلا شيء سوى الادعاء أن الله معنا وسينصرنا لأننا نحمل العقيدة وعدونا كافر، وعلى باطل. وفي كل معركة نرجع مهزومين نتساءل: «أنّى هذا؟»، ونعبر في القرآن بلا تفكر على قوله تعالى: «قل هو من عند أنفسكم».

إن إسرائيل قد استكملت ترسانتها الجوية مع افتتاح الألفية الثالثة بـ ٦٥. مقاتلة تشكل ٢٤ سرباً مقاتلاً منه٣٥٠ (ف ـ ١٦) طول مداها (١٠٠٠ ـ ٢٠٠٠) كم، ١٠٠ مقاتلة (ف ـ ١٥)، ١٠٠ مقاتلة فانتوم ٢٠٠٠ ، و١٠٠ «كفير»، كما تعتمد الترسانة الإسرائيلية على صواريخ جو\ جو (أمرام) (AIM - 120 A)، وهو أحدث صاروخ أمريكي كانت نتائجه أن أسقط ١٥ مقاتلة يوغسلافية (ميغ ٢٣) في حرب البلقان، كما تركز إسرائيل على الغواصة الألمانية (دولفين) والتي حصلت على واحدة منها في شهر يوليو عام ١٩٩٩ م وثمنها ٣٠٠ مليون دولار، وتتحدث الأنباء عن صفقة حصول إسرائيل على ثلاث

غواصات (دولفين) تعمل هي على تزويدها بصواريخ بالستية (أريحا ـ ٣) يصل مداها إلى ٢٣٠٠ كم، وطوربيدات تقارب العشرين، وهو ما يعطيها قدرة على توجيه ضربات صاروخية من تحت الماء يمكن أن تعطل الملاحة العربية في كل المياه.

هذا طبعاً دون إغفال البرنامج الفضائي الإسرائيلي والذي يعمل علماء إسرائيليون ومرتزقة على تطويره، وخاصة عائلة (أريحا ـ ٢)، وقد كان هذا مدعاة لأن يقول شمعون بيريز معلقاً على إطلاق (أفق ـ ٣):

«لقد صارت الهوة النوعية بين إسرائيل والعرب تقاس بالسنوات الضوئية لا بالسنوات العادية، فهؤلاء لا يزالون يحاولون إنتاج صواريخ تنطلق من تكنولوجيا قديمة تعود إلى أيام الحرب العالمية الثانية».

إن القوى الكبرى تزنّر الكون كله بترسانة رهيبة من الأسلحة وأسلحة الدمار الشامل.. لذلك على المسلمين أن يعرفوا وزنهم وموقعهم في جملة منظومة القوة العالمية.

إن تحييد المادة من الصراع باسم العقيدة أمر يعني تحييد العقيدة ذاتها، لأن العقيدة التي لا تدفع صاحبها إلى الإبداع والإعداد وإنتاج أسباب القوة هي في الحقيقة شيء آخر غير العقيدة الإسلامية. إن منطق الاستعراض الأجوف مرفوض، ومنذ ١٤ قرناً والمسلمون يحاولون فك الشرنقة المضروبة عليهم، لكنهم لم يستطيعوا الخروج منها، لسبب واحد وهو أنهم ظنوا أن هذه الشرنقة مضروبة عليهم من أعدائهم، والحقيقة أنها إفراز لأفكارهم ونتاج لأعمالهم وواقع هم صنعوه.. «بما كسبت أيديكم». لذلك عليهم تغيير ما بأنفسهم وذلك أكبر نصر في المعركة الكبرى على الأعداء.

إن الاستعراض حتى مع وجود القوة مرفوض، وقد كان درس حنين بليغاً في هذا المجال، وبين نزول قوله تعالى: «ولا تمنن تستكثر» وبين قوله: «ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً» سنوات تتعدى العقد من الزمان.

والكثرة لا اعتداد بها حين تفقد عنصر القوة، فأمريكا اليوم فيها ٢٨٠ (مليون) مواطن، بينما في الصين مليار ونصف، وفي الهند قرابة المليار، كما أن الإسرائيليين لا يتجاوزون العشرة ملايين بينما وصل المسلمون إلى المليار ونصف المليار عدداً، وأمام هذا التباين المذهل في الأرقام لا يمكن الحديث عن الأضعف أو الأقوى تبعاً للعدد.

لقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم، المسلمين في النكاح بزواج الودود الولود، قصد التكاثر، لأنه عليه الصلاة والسلام يباهي الأمم الأخرى بكثرة أفراد أمته، لكن هذه الكثرة وإنْ كان يمكن المباهاة بها في الآخرة، ضعيفة بمنطق الدنيا.. ولذا سميت في بعض الأحاديث «غثاء كغثاء السيل».

والمؤمن قد يكون في الآخرة من أهل الجنة، لكن ذلك لا يمنع أن يكون في الدنيا مستضعفا وغير فاعل، لذلك فإن المباهاة لا تكون حقيقية إلا إذا كان المسلمون أهلاً للمباهاة بهم.. وإلا فهل تجوز المباهاة بمليار ونصف مليار مسلم تنتهك حرماتهم الدينية، ويقتّل أبناؤهم، وتستحيي نساؤهم من طرف عصابة لا تتجاوز الملايين العشرة؟!!

إن الفرق بين الأمة الحية والغثاء شيء واحد، هو الفاعلية.. وهذه الفاعلية قد تجعل القوة عند الأقل عدداً.

لقد أراد الله في حنين أن يعطي المسلمين درساً هاماً يتخذونه بعد

ذلك معياراً للتفريق بين شيئين: الكثرة والفاعلية، وليدلهم على أن الفاعلية ولو كانت عند فرد واحد أولى من الكثرة إن كانت بدون فاعلية.

إن الكثرة تعلّم الارتخاء وتورث إحساساً بالأمان يسهل معه الوصول إلى مَقاتل الجماعة الكثيرة الأفراد.. الكثرة غرور وتواكل، والأمر هنا شبيه بسباق الأرنب والسلحفاة، فاغترار الأرنب بسرعتها جعلها تتراخى في المضمار، مستهزئة ببطء مسابِقتِها، لذلك كانت الأرنب تترك المضمار وتخرج إلى جانبيه حيث العشب، ترقص وترعى وتستريح، واضعة رجلاً على رجل في ثقة مغرورة... أما السلحفاة فقد أدركت من واقع حالها أن تضييعها لدقيقة واحدة سيرجع عليها بالوبال، وهي وإن لم تتوقف أبداً لا يبدو أنها ستفوز، فكيف بها لو توقفت لدقائق للراحة ؟!

مثل هذا حدث في حنين.. فالجيش المسلم (العرمرم) ظن أنه لن يُغلب، لذلك لم يعطِ كل ما عنده، واستسهل مهمة النصر، بعكس غزوة بدر التي كان فيها المؤمنون قلة فأعطوا كلٍ ما عندهم.. هنا في هذه النقطة بالذات، يمكن الحديث عن المُقاتل الذي يحس بالارتخاء والغرور فلا يعطي سوى جزء من همته وقدرته قد تكون ٣٠٪ أو ٥٠٪، وبين المقاتل الذي يحس بضعفه وبصعوبة الموقف فيعطي كل ما عنده ١٠٠٪ ويستنفذ كل أسباب النصر. ولنَقُمْ بعملية حسابية:

إن عشرة مقاتلين يعطي كل واحد منهم قوته كلها سيكون مجموع ما أعطوا ١٠٠٠ في الألف، بينما ٢٠ مقاتلاً مرتخياً يعطي كل منهم ٢٠٪ مما عنده سيكون مجموع ما يعطونه ٢٠٠ في الألف. وهنا يظهر

تباين القوة بحسب الفاعلية لا بحسب العدد، كما تظهر مسألة هامة متعلّقة بـ «نصر الله».

إن الحديث أمَرَ المسلم بأن يعقلها ويتوكل.. وإذا حدث خطأ عند المسلم فلم يعقلها، فإن ذلك سيؤثر على التوكل، لأن نصر الله لا يأتي للقاعدين والبعيدين عن تقديم كل ما عندهم تواكلاً.

إن الذي يعطي ١٠٠٪ من جهود يحق له وقد استنفد جميع ما عنده من الأسباب أن يطلب عون الله، أما الذي لم يعط سوى ٢٠٪ فإنه لا يحق له أن يطلب ما في السماء، والأولى به استكمال ما هو في الأرض الـ ٨٠٪ الأخرى.

لنرجع إلى حنين عبر قراءة متأنية..

لقد أخرج مالك بن عوف مع المشركين نساءهم وأموالهم وأبناءهم رغم تخطيء دريد بن الصمة له بهذا الرأي، ولم يفعل مالك بن عوف ذلك إلّا لكي تزيد همة الكفار الذين يدركون أنهم إن خسروا الحرب وفرّوا ذهبت أموالهم وسبيت نساؤهم وأُسر أبناؤهم.. يقابل هذا في الصف الإسلامي ذلك الإحساس المفرط بالكثرة، والذي هو مدعاة للفشل والهزيمة.. وهناك قصص وأمثلة كثيرة تصب في هذا المصب وتؤكده، من ذلك أن القوم إذا كانوا عشرة يحملون على عواتقهم ما يستطيع حمله ثلاثة منهم، فإن كل واحد منهم قد يخرج كاهله من تحت المحمول، ولا تبقى إلا يده تتظاهر بإمساكه، ومن شأن ذلك، إن كان ديدن ثمانية أن يُسْقِط الحِمل على اثنين لا يقومان به... ومثاله كذلك أن أحد الملوك بنى حوضاً وأمر رعيته بأن يأتي كل واحد منهم بطست أو كوب عسل ليلاً ويصبه في الحوض ليجتمع بذلك عسل كثير للملك.. في تلك الليلة كان كل مواطن من الشعب يقول: ماذا لو

ذهبت أنا بكوب ماء بدل العسل وأفرغته في الحوض؟.. هل سيضر ذلك؟!! وأين سيظهر الماء القليل الذي سأصبه أنا في العسل الكثير الذي يصبه غيري؟

إن كلمة «يصبه غيري» هنا تجعل الواحد يترك مهمته، وكذا كلمة «يحمل غيري» في الحرب عند الكثرة.. إن وجود هذا الآخرالكثير معناه الاتكال عليه في الحمل والحرب وصب العسل. ولأن كل واحد من الرعية فكّر بالطريقة نفسها، فقد استيقظ الملك صباحاً ليجد الحوض مملوءاً ماءاً بدل العسل.. تماماً كما استيقظ المسلمون من نشوة الكثرة ليجدوا أمامهم واقع الهزيمة لا النصر.. وكما استيقظت الأرنب فلم تجد سوى الخسارة.. وكما استيقظ الحاملون فلم يجدوا سوى أن الحمل قد سقط على اثنين منهم فهلكا تحته.

إن هناك أسبابا كثيرة للهزيمة، فقد يُغلب الجيش عن جهل بأرضية المعركة، وقد يُغلب عن قلة، وقد يُغلب عن ضعف في العدة والعتاد، وقد يُغلب عن تواكل وارتخاء، والمسلمون كانوا طوال سنوات ماضية قلة تنتصر لأنها تعطي كل ما عندها، ولعلهم في حنين أرادوا أن يخوضوا الحرب شبه مستريحين، لذلك اطمأنوا إلى كثرتهم، وقالوا كلمتهم الشهيرة التي حفظتها كتب السيرة: «لن نُغلب اليوم من قلة»، وكان لابد أن يعرفوا أن الهزيمة لا تنتج فقط عن القلة، لذلك كان درس حنين ساداً لثغرة ضعف في الفكر العسكري الإسلامي، ومبيناً أن هناك أسبابا أخرى للهزيمة، وهي في حنين «الارتخاء» و«التواكل».

جاء في كتاب الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، للحافظ ابن كثير ما يلي:

«ثم نهض ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوافى حنينا، وهو واد حدور من

أودية تهامة، وقد كمنت لهم هوازن فيه، وذلك في عَمَاية الصبح، فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد، فولى المسلمون لا يلوي أحد على أحد، فذلك قوله تعالى ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾[10] وذلك أن بعضهم قال: لن نغلب اليوم من قلة. وثبت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يفر، ومعه من الصحابة: أبو بكر، وعمر، وعلي، وعمه العباس، وابناه: الفضل وقثم، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر وآخرون. وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ يومئذ راكب بغلته التي أهداها له وفرة بن نفاثة الجذامي، وهو يركضها إلى وجه العو، والعباس آخذ بحكمتها يكفها عن التقدم، وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينوه باسمه يقول:

«أنا النبي لا كذب.. أنا ابن عبد المطلب».

«ثم أمر العباس وكان جهير الصوت، أن ينادي: يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب الشجرة، يا معشر أصحاب السمرة، فلما سمعه المسلمون وهم فارون كروا وأجابوه: لبيك لبيك، وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يثني بعيره لكثرة المنهزمين، نزل عن بعيره وأخذ درعه فلبسها، وأخذ سيفه وترسه، ويرجع راجلا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى إذا اجتمع حوله عصابة منهم نحو المائة استقبلوا هوازن فاجتلدوا هم وإياهم، واشتدت الحرب وألقى الله في قلوب هوزان الرعب حين رجعوا، فلم يملكوا أنفسهم»[11].

إن الجيش المسلم الذي انتصر في الأخير هو ذاته الذي انهزم في أول

---

١٠ ـ التوبة آية ٢٥

١١ ـ الفصول في سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للحافظ ابن كثير ص ٢٠٥، ٢٠٦

المعركة، فكيف تتحول الهزيمة إلى نصر في الموقع ذاته، وبين الجيشين نفسيهما..؟!! إن شيئاً لم يتغير بالنسبة للعدد والعدة.. إذ لم يأت المسلمين مدد، ولا نقص جيش الكفار.. فقط هناك إحساس داخلي تغيّر حين أحس المسلمون فجأة أن الكثرة لم تغن عنهم شيئاً، وحين أدركوا ذلك أخذ كل منهم دوره الحقيقي وأعطى كل ما عنده دون تواكل على غيره... لقد كان كل فرد متواكلاً على الآخرين.. وكل قبيلة متواكلة على غيرها، وهذا هو السر الذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم، يأمر العباس بأن ينادي كل مجموعة أو قبيلة باسمها خاصة.. «يا معشر الأنصار» «يا معشر أصحاب الشجرة» «يا معشر أصحاب السمرة» وكأن فرض الكفاية يتعين، وكأن المنادي ينادي حاملي العبء واحداً واحداً ليحس كل فرد منهم بدوره والأمانة المعلقة في رقبته عيناً لا كفاية، فيقول:

يا فلان احملْ، ويا زيد احملْ، ويا عمرو احملْ.

وهذا التخصيص لكل واحد غير قولنا للجميع: «احملوا جميعاً» والذي قد يحس فيه كل فرد أن الآخرين قد يكْفونه.

إن الأمر شبيه أيضاً بفرض الكفاية والعين، فالمسلمون يؤمرون بالصلاة على الميت كفاية، لكن إن قال كل فرد من المسلمين سيكفيني الآخرون إذا صلوا، وبالتالي لا داعي لذهابي أنا إلى صلاة الجنازة، ولم يذهب الكل إلى الصلاة، هنا تتعين، ويترك الأمر الشامل ليكون أمراً لكل شخص باسمه بأن يذهب للصلاة على الجنازة.

إن هذا الدرس يعلم المسلمين القيام بواجبهم وفق المبدأ: «قمْ بفروض الكفايات كأن غيرك غير موجود».